صراعاتها كان يتسبب في اضعافها ككل في وجه البدو (١٢) ٠

واخيرا ، لا يمكن تجنب واقع ان الاساس الطبيعي للانتاج ، اي جملة الظروف الطبيعية والبيئية ، او ما يسميه ماركس الثروات الطبيعية بوسائل الحياة لم تكن ملائمة لنهوض مختلف الجماعات السكانية وتطورها الاقتصادي باتجاه صاعد ٠ فاذا اخذنا بالاعتبار انها جميعا ذات انماط متدنية التطور ، طبيعية ، فان تاثرها بهذه الظروف والشروط كان شديدا جدا ويتسبب بالحد من وتائر تطورها وانتقالها الصاعد ٠ وكان المظهر المباشر لهذا التاثير السلبي هو عجز المجموعات الاكثر تدنيا في تطورها (الجماعات الرعوية) عن تجديد انتاجها لسنوات بسبب الجفاف والقحط ٠ في حين كان الفائض لدى المجموعات الاعلى (الجماعات الزراعية) محدودا ، وبالكاد يكفي لتجديد قوة العمل ولتحسين الانتاج ٠ ومن ثم افتقدت الشروط الطبيعية المناسبة لتطور القوى المنتجة ، وللارتقاء باساليب العمل ، التي يتيحها وجود وفرة معينة من الفائض ٠ ان الصلة الجدلية بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي كانت تظهر غالبا في شكل انحطاط متزايد وتدهور متفاقم ٠ فالتاثير الاجتماعي في الطبيعة كان سلبيا وتدميريا ٠ ومظاهر ذلك ان المناطق الزراعية والجبال كانت تتعرض للتعرية والتربة للانجراف والسدود وانظمة الري القديمة جدا للدمار ، والاراضي الزراعية تتحول الى مراع او الى امتداد للصحراء (١٣) ٠

---

(١٢) استخدمت القوة القتالية للبدو من قبل الجماعات الحضرية في التمرد على السلطات العثمانية ، مثلما استخدمت السلطات العثمانية البدو في تهديد الزعامات الاقطاعية المتمردة في مناطق نفوذها ٠ واستخدمت الاخيرة البدو في نزاعاتها الداخلية ٠ اما العثمانيون فقد لجأوا من اجل اضعاف القبائل الكبيرة الى اثارة المنازعات فيما بينها (بني صخر والعدوان مثلا) او في دعم احد الافخاذ ضد فخذ اخر من نفس القبيلة (تحريض الزبن وهي من بني صخر على زعامتها وهي من الفايز ٠٠) راجع فردريك بيك ، المصدر السابق ص ٢١٩ ، و « في ربوع الاردن » ٠

(١٣) يعود التدهور الاقتصادي للمنطقة الى حقب تاريخية بعيدة ٠ فالمناطق المحيطة بنهر الاردن ونهر الزرقاء كانت تعرف ازدهارا كبيرا في الزراعة وفي نظم الري وفي المدن ٠ فمنذ ٥٠٠ عام قبل الميلاد ، كانت هناك نظم ري لجميع الاودية حوالي الانهر التي تصب في نهر الاردن ، تلاها تطورات اخرى في العهد الروماني ، حيث اتسعت مساحة الاراضي المزروعة وكذلك حياة القرى والمدن وابتدات تجارة المنتجات الزراعية الى الاسواق الخارجية ٠ واثر انحطاط الامبراطورية الرومانية تدهورت الزراعة في المنطقة ، ولم تجد في العهد الاموي والعباسي عناية كافية ، فانهارت مشاريع الري تدريجيا ثم نهائيا وتقلصت مساحة الاراضي المزروعة ، واصبحت المدن والقرى اصغر فاصغر ، وبعضها اختفى تماما ، وحل محل الزراعة المستقرة نمط معيشة نصف بدوي